

الثوابت والمتغيرات في العمارة الاسلامية

الدكتور محمد مجدي أبو النور

نحن أحوج ما نكون لاعادة تقييم تراثنا المعماري وتحسس جذوره وفلسفاته بأسلوب علمي دقيق ومحدد الهدف - ألا وهو تحليل جوهره للوصول إلى ثوابته التي كانت منبع راحة الانسان المادية والمعنوية... لا يعني هذا إحياء الأشكال والمفردات المعمارية أو التخطيطية القديمة وإنما استخراج العناصر الفعالة الصالحة لاستخدام اليوم مع التمسك بالبعد الحضاري الذي يجمع بين التراث والمعاصرة.

ولن يكون هذا بالمحافظة على التراث الحضاري كقيمة أثرية شيدها الأسلاف ومجدوا بها الحياة حين كانت العمارة مرتبطة بالقداسة.

كذلك لن نصل إليه بتكرار عمارة المجتمعات الاسلامية المتعاقبة لأن هذا التكرار سيصبح مطلباً غير موضوعي أو علمي فلكل زمان ومكان ومجتمع ظروفه وملابساته.

إن تدني العمارة الاسلامية اليوم في غالبية البلاد العربية من صنع أدينا ونتيجة طبيعية لسطحية تفكيرنا وفي هذا الشأن ينقسم المعنيون بأمرها إلى فريقين :

الفريق الأول يتناول العمارة الاسلامية برؤية غربية فيصفها بالتخلف وعدم صلاحيتها لمواكبة احتياجات العصر الحديث دون أدنى محاولة لفهم جذورها وفلسفاتها.

والفريق الثاني يتناولها بحماس عاطفي ويدلل على صلاحيتها وعالميتها بالعبارات الانشائية الرومانسية التي لا محل لها في عصر الاقتصاد والأرقام والتحليل العلمي.

إن كلا الفريقين لا يستند إلى حجة علمية واحدة سواء في الذم أو المدح والنتيجة الحتمية هي الاساءة للعمارة الاسلامية.

أما عامة الناس فلا يدركون ضرورة الحفاظ على قيم التراث الوظيفي والروحي والثقافي وقد نلتهم لهم الاعذار لعدم تخصصهم أو درايتهم بالتراث وقيمه لتأثرهم بوسائل الاعلام الأجنبية.

ويعتبر الفكر الغربي من أهم العقبات التي تسيطر على معظم مناهج التعليم المعماري لأسباب عديدة من أهمها أنه يعتبر المرجع الوحيد عند تقييم أي عمل معماري ومنبعا للمصطلحات والرموز المعمارية والتخطيطية وترتب على ذلك أن أصبحت المنظمات العلمية الغربية والأمريكية تمتلك زمام هذا الفكر وتوجيهه لمصالح مؤسساتها الاقتصادية مستخدمة في ذلك كافة الطرق من وسائل الاعلام والنشر والتي لاقت استحسان وانبهار العامة وغالبية المتخصصين ومتخذي القرارات.

وفي رأبي أن ثوابت العمارة الاسلامية ستظل حبيسة الفكر المحدود ما لم تجد مكانها في البرامج التعليمية والبحثية.

إن فلسفة ثوابت العمارة الاسلامية لو طبقت اليوم لن تكون بأي حال من الأحوال ترديدا أو تكرارا لرموز وأشكال وأنماط معمارية أو تخطيطية سابقة ولكن ستكون لتلبية احتياجات اقتصادية ووظيفية ونفسية نحن أحوج ما نكون إليها اليوم من أي وقت مضى.

إن للتقدم التكنولوجي العديد من الحسنات والفوائد كنسخير العلم لخدمة الانسان وتلبية احتياجاته وفي نفس الوقت يحوي المضار الكثيرة حيث انقلب من خدمة الانسان إلى السيطرة عليه في سكاناته وحركاته تحت مسميات لا نهاية لها مثل الوفرة والاقتصاد والسرعة... فجاذبية المخترعات الحديثة وسهولة استخدامها جعلت من يقتنها عصري ومتطور ومن يرفضها متخلف وعتيق. مثال ذلك أجهزة التكيف عوضا عن الهواء الطبيعي « والدبيب فريزر » بدلا من الأطعمة الطازجة « والميكرو ويف » حل محل الأفران والأسمدة الكيماوية التي أفقدت الخضروات والفاكهة مذاقها والأعلاف المصنعة بدلا من الغذاء الطبيعي للطيور والماشية فظهرت الأمراض التي لا دواء لها، ناهيك عن الاستنزاف الاقتصادي المستمر الناجم عن الاستيراد إما للخامات أو للماكينات. هذا علاوة على الآثار الاجتماعية الهائلة التي قضت على فرص العمالة والقناعة بما هو موجود واستمرار طلب المزيد والحديث من الخارج إلى جانب ضمور البعد الانساني للشعوب المستهلكة.

ولقد اتخذت المؤسسات التجارية العالمية من التكنولوجيا الحديثة قاعدة عريضة لعمارة اليوم تحت مسمى العمارة الحديثة أو العمارة العالمية على أنقاض العمارة المحلية بقيمها الروحية والثقافية تحقيقا لعائد مادي.

نحن لا ننكر فوائد التكنولوجيا الحديثة التي لا غنى عنها في التنمية العمرانية ولكن نحذر فقط من جوانب السلبية الخطيرة... بمعنى آخر أنه من الضروري للمحافظة على ثوابت العمارة الاسلامية أن نتفاعل مع المنجزات التكنولوجية الحديثة مثل الميكنة ووسائل النقل والاتصالات الأمر الذي يستوجب بالضرورة فصل مسارات الانسان عن طرق السيارات كلما أمكن ذلك ليظهر المقياس الانساني مرة أخرى في حياتنا.

إن الحاجة إلى البعد أو النطاق الانساني عالمية ولا تعني الممارسات المعاصرة السيئة أنها تغاضت عن البعد الانساني ولكن في رأيي أنه ناتج عن انقطاع الاستمرارية والرغبة المدمرة في سرعة الريح والتغير... ان التغير والتنوع من سنن الحياة لتبتعد عن الملل والنمطية والقوالب الثابتة وفي نفس الوقت يجب أن نعلم أن التغير يجب أن يكون لزيادة المنفعة المادية والروحية وإلى الأفضل وإلا كان بالضرورة للأسوأ لذا كان من الضروري معرفة وجهتنا ومحاولة التحكم في أهدافها وتحديد مساراتها لخدمة الانسان وليس لأي غرض آخر.

ولنصل لهذه النتيجة يجب أن نعرف المعنى الدقيق للمعاصرة.

إن تعريف المعاصرة لغويا خارج نطاق هذا البحث ولكن المفهوم البسيط لها في هذا المجال هو التواجد في الوقت الحالي وغالبا ما يستدل به على المقارنة بين شيئين أو حدثين من حيث الزمن فقط ولا يمكن الاستفاضة في معنى الزمن إلى نوعية وكفاءة الحدث بالنسبة لهذا الزمن... وللأسف نرى استخدامات شتى لهذا المصطلح في مجال التقييم النوعي للعمارة والبيئة.

فيقال العمارة الحديثة تنبؤها لارتباطها بالوقت الحاضر لذا يجب تقبلها ضمنا والموافقة عليها وبنفس المفهوم ما شيد في الماضي فهو متخلف وعتيق وبالي ولا يساير الزمن الحالي. وللتدليل على الخلط في المفهوم الشائع للحديث والقديم فإن العديد من مبادئ التصميم المعماري لدور السكني في الماضي لا تزال ترد علي وتلبي الاحتياجات المادية والنفسية المعاصرة كما كانت بالأمس.

الثوابت في العمارة الاسلامية :

تطلق كلمة الثوابت في العمارة الاسلامية على العناصر التصميمية للميراث المعماري والعمراني التي ظهرت في عمارة ومدن الأجداد مؤدية لوظيفة أو وظائف وأهداف بكفاءة ولا تزال الحاجة إليها قائمة وتكلفتها الاقتصادية في مقدرة قطاع عريض من الناس وإلا أصبحت رومانسية نحتاج إليها ولا نقدر عليها.

يعتبر الدين الاسلامي والبيئة الطبيعية من أهم العناصر المؤثرة والثابتة التي لم تتغير طوال عمليات التحول التكنولوجي والثقافي في غالبية البلاد الاسلامية.

ولما كانت التجربة والخطأ وذكاء الانسان في تعامله مع البيئة المحيطة على مر العصور لارضاء متطلباته⁽¹⁾ الفسيولوجية والنفسية من الامور التي يصعب استبعادها من حساباتنا لذا

(1) العمارة العربية الحضرية بالشرق الأوسط، محاضرة ألقاها الأستاذ المهندس حسن فتحي بجامعة بيروت العربية - 29 نيسان 1971.

فهو مرجع قياسي مضمون العواقب يمكن الاعتماد عليه في تقييم واستنباط تلك الثوابت التي أوجدها أسلافنا بأنفسهم على مر العصور دون تقليد للآخرين.

وبناء على ما تقدم سنقوم بتصنيف واستخلاص الثوابت المعمارية والعمرانية وننتهي بالمتغيرات التي لا تخدم احتياجاتنا الملحة.

الدين وعمارة المسلمين :

تنبع غالبية الثوابت المعمارية والتخطيطية من الدين الاسلامي وتعاليمه التي أثرت تأثيرا مباشرا وعميقا في حركات وسكنات المسلمين وظهر ذلك واضحا في نظام الحياة اليومية والعلاقات الاجتماعية من حسن الضيافة والكرم ومراعاة الجيرة وفي نفس الوقت خصوصية وحرمة الأسرة... كما حرص الاسلام على غرس قيم الاعتدال حتى مع سعة الرزق خشية أن يغمس المجتمع في البذخ فتنهار قوته وصلابته وحضارته... وبتطبيق هذا المبدأ على العمارة بصفة عامة نرى أنه إذا تجاوز الانفاق أداء الوظائف فإنه يدخل في نطاق التبذير ويخرج بأموال المسلمين عن الدور الاقتصادي الموجه لبناء المجتمع.

ويعتبر المنزل العربي في الفترات الاسلامية بمعظم البلاد العربية من أعظم الأمثلة التي تضمنت أهم الثوابت حيث ظهر المنزل حول فناء داخلي مزروع تطل عليه غالبية الغرف مستمدة منه الهواء النقي والاضاءة المناسبة .

مكن الفناء الداخلي المصمم من إيجاد مطل جميل وهادئ لأربع واجهات داخلية بدلا من واجهة واحدة تطل على الشارع بسوقيته... وفي نفس الوقت أصبح قادرا على التعامل مع المبنى كأقسام مختلفة التوجيه فظهرت التراسات الداخلية مواجهة للاتجاه البحري حيث الهواء اللطيف.

وفر الفناء الداخلي مساحات مناسبة وآمنة للأطفال يلعبون فيها تحت الاشراف المباشر للأسرة.

أوجد التصميم الداخلي للمنزل خصوصية بصرية لا مثيل لها من خلال المدخل المنكسر الذي يحجب رؤية من بالداخل تماما عند فتح الباب الخارجي... كذلك وفرت المشغولات الخشبية « المشربيات » التي غطت النوافذ الخارجية والداخلية عن طريق التحكم في سعة فتحاتها فظهرت ضيقة ومتقاربة حتى مستوى النظر لتجذب من بالداخل واتسعت أعلى مستوى النظر لتسمح بمرور الهواء والضوء الطبيعي ولم ينته الأمر عند هذا الحد فقام المصمم باستدارة جميع عناصر « المشربية » حتى يتلاشى التضاد بين شدة الاضاءة الكبيرة بالخارج والقليلة بالداخل فظهرت مريحة للعين سواء نظرنا من الداخل أو الخارج.

النوافذ الخارجية كانت تحدها اللوائح الغير مكتوبة التي تقضي بضرورة تحديد أماكنها بالتبادل بحيث لا تطل أي منهم مباشرة على الجار المقابل.

بعد أن توفرت الخصوصية للأسرة داخل منزلها وللأسر المتجاورة يبدو أنهم أدركوا أن الأبنية الداخلية التي كانت تقضي الأسرة فيها أوقاتها ستكون مرئية من المآذن المنتشرة في كافة الأحياء السكنية فاشترطوا⁽²⁾ أن يكون المؤذن من المكفوفين... بهذا وفر المنزل الاسلامي أعلى درجات الخصوصية وهذا أمر صريح ومحدد بالدين الاسلامي ولكن هل وصلت إلى هذا الحد من الخصوصية بشكل قد يبدو للبعض كأنه عزلة. لم يحدث هذا فعلى النطاق الخارجي ظهر التجانس الاجتماعي في غالبية التجمعات السكنية بضرورة بوجود شيء أو عامل مشترك بين قاطني الأحياء مثل الدين أو الحرفة أو الموطن الأصلي قبل النزوح للمدينة أمثلة ذلك حي النحاسين - الخيامية - حارة اليهود - حارة البرابرة... الخ. من هذا التجانس الاجتماعي ظهر الانتماء للمكان وتغلبوا على الحقد والسلبية والتطرف بحل مشاكلهم لدى كبارهم وعقلائهم⁽³⁾ ذوو الكلمة المسموعة والحكم الفوري النافذ.

ولم يكتف الأجداد بهذا التجانس الاجتماعي على مستوى المدينة بل ظهرت الحارات المقفلة من نهايتها لتسكنها أسرة واحدة وأبنائها وأحفادها.

هذا التجمع الهائل بالضرورة أوجد تبادل التآخي والتعاطف بين أفراد الأسرة الكبيرة إلى جانب نقل الخبرات والتجارب من جيل إلى جيل فتأصلت القيم والتقاليد والمعرفة وتواصلت الأرحام تطبيقاً لتعاليم الاسلام.

عمارة الشارع الاسلامي وتخطيطه :

بعد أن انتهينا من إظهار أثر الدين الاسلامي على عمارة المسلمين ننقل إلى قيمة أخرى وهي تخطيط الشارع المختلف الأبعاد وعلاقته بالأبنية المطلة عليه.

لحسن الحظ أن غالبية الدول الاسلامية لا تزال تحتوي على قطاعات مناسبة من الشوارع والأبنية المحيطة بها منذ نشأتها الأولى وبذا نصبح قادرين على تقييم علاقات متكاملة وليس مفردات متناثرة مثال ذلك الأحياء القديمة بمدينة جدة بالمملكة العربية السعودية وبغداد بالعراق والقاهرة المعزية بمصر وتمثل الأخيرة أعظم الأمثلة ليس لقدمها فقط ولكن لاحتوائها على أبنية تمثل الفترات الاسلامية المتعاقبة⁽⁴⁾ (الفاطمية - الأيوبية - المملوكية) متجمعة ومتجاورة بشارع المعز لدين الله... يبلغ طول منطقة الدراسة حوالي كيلومتر ونصف حيث تراوح عرض الشارع ما بين أربعة أمتار وعشرة أمتار تقريباً... يعتبر هذا الشارع من أهم المزارات السياحية في مصر حيث نرى على جانبيه الحوانيت الصغيرة تعرض بداخلها وخارجها كافة المنتجات اليدوية والمشغولات الفضية والخشبية والنحاسية وعلى جانبيه نرى

BRIGGS, M.S. MUHAMMADAN Architecture in Egypt and Palastine. Claredon press, (2) Oxford, 1924.

Ibid, P. 322-323.

(3)

KRESWEL, K.A. Muslem Architecture, Vol. 2, E.D. Ross, The studio, Ltd, London, 1931, (4) P. 138.

الدروب المتعرجة والمباني السكنية والدينية والأسبلة والكتاتيب. هذا الخلط في الأنشطة والاستعمالات أكسب المنطقة مذاقا خاصا لم توفره الأسواق الحديثة حتى الآن... ومن العجيب أن الأبنية المظلة على هذا الشارع يرجع تاريخ إنشائها إلى فترات زمنية متعاقبة وطرق إنشاء مختلفة إلا أنها تبدو وكأنها بنيت في وقت واحد وعلى يد مهندس واحد... إلى هذا الحد ظهرت عمارة الشارع متجانسة... كل مصمم يحترم فكر الآخر ويطوره ويضيف عليه فكان كل مبنى معاصرا لزمه ومتجانسا مع النسيج العام للمنطقة... هذه القيمة نفتقدها الآن ليس بسبب عدم حاجتنا إليها ولكن لأنها من أصعب الأمور التي تواجه المصمم وتحتاج إلى حساسية عالية وفهم عميق... ويشهد على ذلك حاليا غالبية الأبنية المتجاورة في أي شارع أوروبي أو عربي حيث يظهر فيه تجميع لخليط متنافر من الأبنية بالرغم من نشأتها في فترة واحدة.

هذا التجانس والوحدة ليس التكرار كانتا مصدر حيرة عظماء الباحثين في العمارة الإسلامية وعلى رأسهم العالم البريطاني « كريزول ».

أما من الناحية التخطيطية فإن شارع المعز يمثل نموذجا من نماذج الشوارع القديمة ويعتبر مرجعا من مراجع التخطيط لشوارع المشاة ويعرف ذلك غالبية المتخصصين... أما العامة فالأمر واضح لمن يتجول لمدة معينة في أحد الشوارع القديمة المظلة المتعرجة المحاطة بالمحلات المتنوعة وشارع حديث تام الاستقامة لا نهاية بصرية له ومتعرض للشمس معظم النهار... أي ملل وعناء يشعر به الانسان.

البيئة الطبيعية :

إن متطلبات الانسان من البيئة الطبيعية لم تتغير على مر العصور فالراحة الحرارية والسكون والهدوء والخصوصية من الأمور التي لا غنى للانسان عنهم بل على العكس تعاظمت الحاجة إليهم في عصر يتسم بالضجيج والصخب والتلوث الكيميائي والبصري.

هذه المتطلبات المفروض أنها أساسية وليست من دواعي الرفاهية... للأسف الشديد في وقتنا هذا أصبح لا يقدر على تلك الأساسيات إلا كبار الأغنياء حيث شيدوا الاستراحات الساحلية والريفية في أوطانهم وخارجها، واستعان الأغنياء بالأجهزة التي تعوضهم عن فشل المهندس المعماري مثل أجهزة التكييف والإضاءة الصناعية نهارا والمواد العازلة للصوت لحجرات نومهم ومكاتبهم... أما الفقراء فيعيش معظمهم في منازل أقرب ما تكون إلى المعسكر منها إلى السكن الذي اشتقت تسميته أصلا من السكنية والهدوء.

مما سبق سنحاول أن نبرهن بلغة العصر ألا وهي الأرقام على مدى كفاء دور السكن في الفترات الإسلامية من حيث الراحة الحرارية والصوتية.

الراحة الحرارية :

أظهرت التجارب الميدانية التي قمت بها⁽⁵⁾ لقياس درجات الحرارة لأحد المنازل المشيدة في الفترة التركية « منزل السحيم الأثري » أنه بمساعدة التخطيط الخارجي للحي والتصميم الداخلي للمنزل حول الفناء واستخدام ملاقط الهواء انخفضت درجات الحرارة عن مثيلاتها في منزل حديث (منطقة الدقي) بمقدار يتراوح ما بين 3 إلى 10 درجات طوال فترات التجارب التي امتدت من 15 تموز وحتى 12 أيلول سنة 1978... هذا الانخفاض في درجات الحرارة لم يكن على حساب التوزيع الداخلي للمنزل أو ممارسة الوظائف المختلفة كما لم تكن له أي تكلفة اقتصادية.

عزل الضوضاء :

سجلت القياسات الصوتية للضوضاء خارج المنزل وتتبع شدتها بالداخل أن هناك انخفاض في شدتها يتراوح ما بين 31 ديسبل إلى 35 ديسبل... وبالدراصة اتضح أن الانخفاض نتج عن عوامل عديدة أهمها دراسة مواقع الفتحات التي ينفذ الصوت من خلالها وكذا مواد البناء.

الجودة الصوتية :

تُقِيم الجودة الصوتية للفراغات الداخلية لأي مبنى طبقاً لزمّن الرنين المثالي لحجم الفراغ كذلك سرعة اضمحلال الموجات الصوتية البندولية المتسلطة.

ويُقاس زمن الرنين للعديد من الصالات والقاعات بالمنازل الأربعة يكاد مطابقاً لأزمنة الرنين المثالية المسجلة بجميع المراجع العلمية الحديثة والمتعارف عليها⁽⁶⁾.

أما بالنسبة للموجات البندولية فنظهر مشاكلها دائماً عندما تكون الحوائط المشكلة للفراغات الكبيرة تامة التوازي الأمر الذي تغلب عليه المصمم الاسلامي بعمل ميل بسيط في الحوائط المتقابلة تتراوح ما بين 3° إلى 5° فتلاشت تماماً الموجات البندولية المتسلطة دون أي تكلفة اقتصادية.

المتغيرات :

أثرت التكنولوجيا الحديثة تأثيراً بالغاً على حياة الشعوب فخروج المرأة للعمل وظهور الأندية والملاهي ووسائل الاتصالات جعل الأسرة تقضي فترات طويلة خارج المنزل... كذلك

NOUR, M.M.A. an Analytical Study of Traditional Arab Domestic Architecture. PhD Thesis, (5)
The University of Newcastle upon Tyne, U.K. 1979.

PARKEN, P., Accustic, Noise and Buldings. Faber & Faber Ltd, London, P. 36-39. (6)

انتشار استعمال المعدات الحديثة كالثلاجات والأفران صغيرة الحجم والأطعمة المعلبة كل هذه الأمور جعلت مساحة المنزل أصغر من مثيلاتها القديمة... بالإضافة إلى استخدام وسائل النقل الحديثة التي جعلت من الشوارع القديمة الضيقة شوارع للمشاة ولا تصلح للسيارات كذلك الزخارف والمنمنمات الرخامية وأعمال الخرط الخشبي أصبح لا محل لهم الآن لتكلفتهم الباهظة.

الخلاصة والنتائج :

بالفهم العلمي والتحليل المحايد للميراث المعماري يتضح أن هناك العديد من الأسس والجوانب التي لا يمكن إغفالها بل يجب تطويرها لتوفير الراحة الجثمانية والروحية المفقودة.

الاهتمام بدراسة البرامج المعمارية التي تدرس في الجامعات من منظور تحليلي وتشجيع الأبحاث المتخصصة لتطبيق ثوابت العمارة الإسلامية تطبيقاً عملياً فيدرك قيمتها العامة والخاصة.

أصبح من الضروري عمل مراجعة شاملة لجميع القوانين البنائية والعمرانية المستوردة حتى لا تستمر القيم الإسلامية حبيسة العقول وبعيدة عن التطبيق.

يجب الاهتمام بالدراسات الاجتماعية للسكان قبل البدء في أي مشروع حتى تنشأ مجتمعات متجانسة تجمعها عوامل مشتركة ليعود الانتماء والمحبة والترابط.